خطاب الجائحة شاهداً حجاجياً

أ. د. محمد مشبال[1]

(قدم للنشر في ١٥/ ٠٦/ ١٤٤٣هـ؛ وقبل للنشر في ٢١/ ٠٧/ ١٤٤٣هـ)

المستخلص: ينظر هذا البحث إلىٰ جائحة كورونا التي أصابت العالم باعتبارها خطابا أو مجموعة من الخطابات المتصادمة؛ حيث يسعىٰ كل خطاب منها إلىٰ إقناع مخاطبيه بوجهة نظره؛ فالخطاب الرسمي ينزع إلىٰ الإقناع بمصداقية انتشار وباء خطير يهدد البشرية في وجودها مثلما يهدد الدول صحيا واقتصاديا واجتماعيا، بينما ينزع الخطاب الشعبي إلىٰ التصدي لهذا الخطاب لنقض دعواه والتشكيك في مصداقيتها المدعاة إلىٰ درجة إنكار وجود هذا الوباء. وقد استخدم الخطابان المتعارضان جملة من الحجج البلاغية التي سعىٰ البحث إلىٰ إظهارها وتحديدها وضرب الأمثلة عليها من الخطابات التي انتشرت في وسائل التواصل الاجتماعية والإعلامية. وكان أحد أهم أهداف هذا البحث الدعوة إلىٰ ربط البلاغة بالخطابات اليومية الحية، بدل حصرها في أمثلة جامدة مقطوعة الصلة عن سياقاتها التواصلية، كما كان أحد أهدافها إظهار أن معركة كورونا كانت معركة بلاغية استخدمت فيها الكفاية الخِطابية الحجاجية مثلما كانت معركة صحية واقتصادية واجتماعية. وبناء عليه استطاع البحث أن يثبت أن البلاغة ليست مجموعة من محسنات الخطاب، بقدر ما هي أداة صناعة القرارات والدفاع عن الذات في عالم لا يرحم.

الكلمات المفتاحية: الحجاج البلاغي، الحجج، الشاهد الحجاجي، خطاب الجائحة.

* * *

(١) أستاذ التعليم العالي، أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بكلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي.

البريد الإلكتروني: medchbal@hotmail.com

Pandemic as argumentative discourse

Prof. Mohamed mechbal

(Received 18/01/2022; accepted 22/02/2022)

Abstract: This research looks at the coronavirus pandemic that has plagued the world as a discourse or set of confrontational discourses; Each discourse seeks to convince its addressees of its own point of view; Official discourse tends to convince the credibility of a serious epidemic that threatens humanity in its existence, as well as StatThis research looks at the coronavirus pandemic that has plagued the world as es' health, economic and social, while popular discourse tends to overturn its thesis and question its alleged credibility to the point of denying the existence of the epidemic. The two conflicting discourses used a number of rhetorical arguments that the research sought to demonstrate, identify and illustrate from rhetoric that had spread in social and media . One of the main objectives of this research was to call for linking rhetoric to live daily speeches, rather than limiting them to rigid examples that are not related to their communication contexts.The other of its objectives was to show that the battle of the coronavirus was a rhetorical battle that used the rhetorical sufficiency of the argument as it was a health, economic and social battle. Accordingly, research has been able to demonstrate that rhetoric is not so much a set of figures of discourse as a tool for decision-making and self-defence in a ruthless world.

Key Words: Rhetorical argumentation, arguments, pandemic discourse, argumentative discourse.

***

مقدمة..

لم تكن كورونا منذ ظهورها وحتىٰ اجتياحها العالم بأسره، موضوعا علميا خالصا؛ بل كانت موضوع جدل واسع بين الحكومات وشعوبها، وبين أفراد الشعب نفسه، داخل الأسرة وفي مواقع التواصل الاجتماعي، وفي الإعلام، وفي غير ذلك. إن ظهور هذه الجائحة وانتشارها وتأثيرها في حياة البشر اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، ولّد سياقًا تواصليًا بلاغيًا بين عدة أطراف؛ منها طرفان: أحدهما رسمي، والآخر شعبي. فبينما انطوت وجهة النظر الرسمية علىٰ موقف بلاغي عام تمثل في توجيه النُّصح للناس بإعادة صياغة سلوكهم اليومي في حياتهم الاجتماعية لمواجهة الجائحة والحدّ من انتشارها باعتباره الحل الوحيد المتاح في غياب اللقاح، فقد انطوت وجهة النظر المقابِلة علىٰ أكثر من موقف تواصلي بلاغي؛ تمثّل الموقف الأول في إنتاج خطاب ساخر من الخطاب الرسمي العالمي أو المحلي عن الجائحة؛ وقد استمرت هذه السخرية ولم تتوقف حتىٰ في أحلك تطورات الوباء وفي أشد لحظات فتكه بالإنسان. أما الموقف الثاني فقد تمثّل في إنتاج خطاب ينتقد الخطاب الرسمي في الإجراءات والتدابير التي اتخذها، بل إنه اتهمه بتدبير مؤامرة علىٰ الإنسان وتسخيره لهيمنة مصالح الدول العظمىٰ. بناء علىٰ هذا فإن الجائحة التي لازلنا نعيش وطأتها منذ مطلع سنة ٢٠٢٠م لم تحضر في حياتنا في صورة وباء يهدد البشر في وجودهم فقط، بل حضرت أيضا باعتبارها خطابات تتصادم وتتنازع؛ ولعل هذا التّنازع أن يجعل الشعوب ليست مجرد حشود تقاد إلىٰ مصير مقرّر لها، بل عقول مدبّرة تشارك في صناعة القرارات.

كورونا والخطابات الحجاجية..

كان علىٰ الدول أن تستخدم مجموعة من الإجراءات الاحترازية لكي تحمي نفسها من هذا الوباء؛ وقد عزّزت هذه الإجراءات بخطاب حجاجي توجّه إلىٰ عقول الناس وعواطفهم لإقناعهم بضرورة الإذعان لهذه الاحترازات وتطبيقها، وعلىٰ رأسها فرض الحجر الصحي. وقد

خلق هذا الخطاب جدلاً واسعًا في مواقع التواصل الاجتماعي؛ بين مؤيد ومعارض. وفي مقابل هذا الخطاب الحجاجي الرسمي، نشأ خطاب آخر قام علىٰ انتقاده أو السخرية منه أو اتهامه. وسنعمل في الفقرات الآتية علىٰ استخلاص جملة من الحجج التي استخدمها الطرفان في تدبير هذا الوباء.

من الحجج المستخدمة في الخطاب الذي رافق هذه الجائحة، تلك الحجج التي تتمثل آليتها في تقييم الوسائل في ضوء الغايات المتوخاة منها؛ وجماعها: «الحجة النفعية»، و«حجة التبذير»، و«حجة الاتجاه»، و«حجة الانتشار»، و«حجة العدوىٰ».

الحجة النفعية..

تقوم الحجة النفعية علىٰ تقييم حدث ما، بناء علىٰ القيمة الإيجابية أو السلبية التي تحوزها النتيجة المترتبة عليه، وهي قيمة يفترض أن يكون حولها اتفاق، وإلا فلابد من اعتماد تقنيات حجاجية أخرىٰ لدعم القيمة المزعومة وتأييدها في وجه المعترضين عليها: «إنني أسمي الحجة النفعية حجة النتائج التي تقدر فعلا وحدثا وقاعدة أو أي شيء آخر، بناء علىٰ نتائجه المقبولة أو غير المقبولة. إننا بذلك ننقل جزءاً من القيمة أو القيمة كلها من النتائج إلىٰ السبب أو العائق»[1]. وقد اعترض المثاليون علىٰ هذه الحجة التي تبخس قيمة الفعل وتنزع عنه قيمته المطلقة عندما تعتبره مجرد وسيلة وليس غاية في ذاته أو مبدأ[2]. فالالتزام بالقانون ليس مزية في ذاته، ولكن لما يترتب علىٰ تطبيقه من نتائج مفيدة، من هنا يمكن القول في سياق حديثنا عن الخطاب الحجاجي حول كورونا؛ إن مزية الحجر الصحي وارتداء الكمامة والتباعد والكف عن المصافحة بالأيدي والامتناع عن التجمعات.. ليست كامنة في هذه السلوكات في ذاتها، ولكن لما يترتب عليها من نتائج مفيدة في الحدّ من تفاقم الوباء. تقوم هذه الحجة علىٰ معيار النجاح، فإذا كانت تبني أحكام

(1) Le champ de L'argumentation, Presses Universitaires de Bruxelles, 1970., p.100.
(2) Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumentation, éditions de l'université de Bruxelles,2000.p.576.

قيمتها بناء علىٰ المنفعة التي نجنيها من الفعل؛ فإن النجاح هنا يكمن في منفعة متفق عليها، وهي حماية حياة الناس المهدّدة بالزوال.

حجة التبذير..

تقتضي هذه الحجة تسويغ استمرار فعل ما أو الامتناع عنه، بحكم التبذير الناجم عنهما. وهي تقوم علىٰ الحفاظ علىٰ قرارات أو تدابير معينة استجابة لغاية معينة؛ إنها تقضي بالقول «إننا مادمنا قد بدأنا عملا ما، وقبلنا تضحيات سنهدرها في حالة التخلي عن المشروع، فيجب مواصلة الطريق في الاتجاه نفسه»(1). فاتخاذ قرار إيقاف إجراء الحجر الصحي للحدّ من الأضرار الاقتصادية التي ترتبت عليه، هو حجة نفعية اعتُرض عليها بحجة مناقضة هي حجة التبذير التي قامت هنا علىٰ الدعوة إلىٰ مواصلة الحجر الصحي رغم الخسائر الاقتصادية المتوالية، بناء علىٰ أنه قرار يكتسب قيمته الإيجابية من الغاية التي ينطوي عليها، والمتمثلة في صيانة التضحيات التي بذلها الناس بالتزامهم ببيوتهم لشهور طويلة حتىٰ لا تذهب هباء منثورا. فقد أدىٰ تزايد أعداد المصابين بالوباء بعد عيد الأضحىٰ صيف ٢٠٢٠م إلىٰ توجيه انتقادات للحكومة المغربية التي سمحت - بعد شهور من الحجر الصحي الصارم - بإقامة أسواق شعبية لبيع أضاحي العيد، وهي فضاءات يصعب فيها تطبيق إجراءات الاحتراز الصحي لما يحدث فيها من اكتظاظ ناجم عن الحشود المتجمعة في هذه الأسواق.

والحجة نفسها استخدمتها الحكومة المغربية لتسويغ حظر الطيران وإغلاق الحدود الجوية للتحاشي من تعريض المكتسبات السابقة إلىٰ الضياع.

حجة الاتجاه..

تخضع حجة الاتجاه إلىٰ التقييم نفسه؛ فهي تقوم علىٰ نقد إجراء ما بناء علىٰ الاتجاه الذي يسير فيه، أو علىٰ التحذير من المضي في اتجاه يفضي إلىٰ نتيجة في سلسلة من المراحل السيئة؛

(1) Traité de l'argumentation, op, cit.,p.375.

كل مرحلة أسوأ من سابقتها؛ فهذه الحجة «تقتضي من جهة وجود سلسلة من المراحل نحو هدف معين يتسم غالبًا بأنه مرعب، وتقتضي من جهة أخرىٰ صعوبة إن لم يكن استحالة التوقف مادمنا قد مضينا في الطريق التي توصلنا إليه»[1]. تتجزأ الغاية التي يجري التحذير منها في هذه الحجة إلىٰ مراحل متعددة؛ إنها مرحلة في اتجاه معين، ولأجل ذلك تسمىٰ أيضا بحجة «إجراء المراحل»، أو حجة «الالتزام الحتمي»: «فإذا استسلمت هذه المرة، فإنك ستستسلم بدرجة أكثر في المرة القادمة، ويعلم الله أين ستتوقف. وهي حجة تستعمل بشكل متواتر في المفاوضات بين الدول، وبين أرباب العمل والمستخدمين، عندما لا نريد الظهور بمظهر الاستسلام للقوة والتهديد والابتزاز»[2]. وهذه الحجة تستخدم الآن عند من يرفضون التلقيح؛ فهناك خطاب كاريكاتوري يقوم علىٰ حجة أن من يقبل الجرعة الأولىٰ سيضطر لأخذ الجرعة الثانية والثالثة.. وهكذا قد تؤدي به الجرعات في النهاية إلىٰ أن يتحول إلىٰ كائن غريب.

ولهذه الحجة المبنية علىٰ تجنب هدف غير مرغوب فيه، عدة أشكال[3] استخدمت في الخطاب الحجاجي حول كورونا:

حجة الانتشار..

وهي تحذر من ظواهر تنزع بوساطة آليات طبيعية واجتماعية إلىٰ التنقل والتضاعف إلىٰ أن تصبح بهذا النمو نفسه مؤذية. يجب كتمان السر حتىٰ لا ينتقل ويتضاعف ويصبح ضارّاً. وإذا ما كانت الظاهرة في حالتها الأولىٰ قبل تطورها وانتشارها، شراً، فإن الأمر يتعلق **بحجة العدوىٰ** التي تصدق كأفضل ما تصدق علىٰ الأمراض المعدية والأوبئة.

حجة العدوى..

يجب محاصرة وباء كورونا اللعين بشتىٰ الطرق ومنها فرض الحجر الصحي علىٰ الناس

(1) Ibid, p.383.
(2) Ibid, p.379.
(3) Ibid, pp.385-386.

ومنعهم من التجمعات حتىٰ لا ينتشر المرض ويتضاعف ويصبح بعد ذلك من المستحيل القضاء عليه. ولعل هذه الحجة أن تكون أهم حجة استخدمتها المؤسسات الرسمية في دعوتها إلىٰ اتخاذ الإجراءات الاحترازية التي كان من الصعب علىٰ الناس تقبلها في بداية ظهور الجائحة؛ وهي كلها إجراءات حرمت الناس متعة الاختلاط والسفر وحضور الحفلات وممارسة الحياة الطبيعية في الشارع والمدرسة والجامعة، وهددت أرزاقهم، بل وغيرت نمط الحياة العادية التي ألفوها. ولولا أن هذا الوباء يقوم وجوده أساسا علىٰ العدوىٰ، لما قبل الناس بهذه الإجراءات الاحترازية. فكل من يرفض الالتزام بهذه الإجراءات، فإنه يتسبب في انتشار الوباء ومضاعفته. لذلك فهي تظل الوسيلة الوحيدة المتاحة – قبل ظهور لقاح فعال – لحماية حياة الناس والحد من تفاقمه وإصابته لأعداد كبيرة من الضحايا.

إذا كانت الحجج السابقة تصنف ضمن الحجج القائمة علىٰ علاقات التعاقب معتمدة الوصل بين أشياء ووقائع متساوية، فإن الخطاب الحجاجي الذي صاحب الجائحة لم يخل من صنف آخر من الحجج تعتمد الوصل بين أشياء ووقائع غير متساوية؛ إذ تشكِّل الحظوة أحد الأسس التي يُبنىٰ عليها الحجاج البلاغي؛ فالقيمة التي يحظىٰ بها عند المتلقي شخص ما أو مجموعة أشخاص أو فئة أو مفهوم تشكِّل جزءا من بناء فعالية الإقناع، وصياغة عديد من التقنيات الحجاجية. فقد يلجأ المتكلم إلىٰ سلطة أي مصدر؛ إما لدعم دعوىٰ معينة، أو لتقييم وتأويل سلوك أو حكم أو قول صادر عن هذا المصدر، وإما للحضّ علىٰ محاكاة فعله[1]. وفي جميع هذه الحالات ينظر إلىٰ علاقة المصدر بالفعل (العلاقة بين الشخص وما يقوم به من أفعال وأحكام وأعمال مثلاً) بوصفها نموذجاً لعلاقات التعايش بين أشياء غير متساوية؛ إذ يعد أحدها

(١) ما أطلق عليه برلمان بحجة القدوة ينتمي إلىٰ صنف الحجاج الذي يبني الواقع بوساطة حالات خاصة؛ فهو ليس من الحجاج القائم علىٰ علاقات التعايش بين الأشياء.

تجليا للآخر[1].

تلتقي مجموعة من التقنيات الحجاجية حول فرضية أن ثمة تجانسا بين الشخص من جهة وبين أفعاله وأحكامه وأقواله. هنا تبرز أهمية حضور السلطة أو الحظوة بوضوح في العملية الحجاجية التي صاحبت ظهور كورونا وتطورها.

حجة السلطة..

استخدام حجة السلطة أداة ضرورية للإقناع في مثل هذا الموقف الذي تتضارب فيه الآراء وتكثر فيه وجهات النظر وتتعدد التفسيرات؛ فالموقف لا يتعلق بقضية علمية خالصة، ولكنه يتعلق بقضية علمية تهم الناس في شؤون حياتهم اليومية: كيف نواجه هذا الوباء؟ وما هي السبل الكفيلة بالوقاية منه دون أن نحرم الناس من الاستمتاع بالحياة أو الحفاظ علىٰ قوت يومهم؟ إنه موقف يتطلب الإقناع باللجوء إلىٰ سلطة لاشخصية متمثلة في الخبير سواء أكان طبيبًا، أم عالمًا، أم مؤسسة صحية مستقلة مثل منظمة الصحة العالمية، أو اللجوء إلىٰ سلطة شخصية متمثلة في خبير معين يتمتع بمصداقية علمية كبرىٰ عند الناس؛ فالخطاب يكتسب فعاليته من القيمة التي يحظىٰ بها صاحبه في المجال الذي يتحدث فيه، ولن تقبل من شخص مشكوك في علمه أو شخص يفتي في كل شيء[2]. فلا يمكن أن نقبل الإرشادات الوقائية من وباء كورونا، إلاّ من خبير مادام الالتزام بها أمرا شاقا يعرض حياتنا اليومية إلىٰ سلسلة من القيود والإكراهات.

تستخدم حجة السلطة حظوة الشخص في دعم دعوىٰ ما؛ أي إن المتكلم يستخدم ما نطق به هذا الشخص ذو المكانة العليا في تقدير المخاطَبين، من أقوال، وما أصدره من أحكام، وما قام

(1) Chaim Perelman, L'empire rhétorique, Librairie Philosophique j. VRIN, 1977, 2008.p.118.

(٢) لقد تعرض أحمد الفايد وهو خبير مغربي في التغذية كما يقدم نفسه، لموجة من السخرية بسبب خوضه في موضوع ليس من اختصاصه. وهو ما يتنافى مع قواعد حجة السلطة ويجعلها مغالطة حجاجية.

به من أفعال، حجة يسند بها دعواه. تستند هذه الحجة إلىٰ سلطة الشخص في التقييم وإصدار الأحكام؛ حيث تلجأ إلىٰ ممارسة تقييم دعوىٰ ما (موقف أو رأي أو حكم) في ضوء أقوال وأفعال شخص ذي حظوة وقيمة متفق عليها بين الخطيب والمخاطَبين؛ إنها تنظر إلىٰ الدعم الذي يمكن أن يجلبه الاستشهاد بسلطة شخص وبسلطة أعماله للدعوىٰ التي نتوخىٰ إثباتها[1]؛ إنها تسوِّغ هذه الدعوىٰ بالاستناد إلىٰ قيمة مصدرها وليس بناء علىٰ محتواها[2]؛ إذ تنطلق من مسلّمة مُفادها أن الأقوال والأفعال المسندة إلىٰ مصدر ذي حظوة يلزم عنها بالضرورة نقل الحظوة إليها؛ أي إننا نقوم بنقل القيمة المتفق عليها من المصدر إلىٰ أقواله وأفعاله؛ وانطلاقًا من هذه المسلّمة يعمل المتكلم علىٰ بناء أحكامه ودعم دعواه بالاستناد إلىٰ ما لهذه الأقوال والأفعال من قيمة ناجمة في الأصل عن قيمة مصدرها وسلطته.

وإذا كانت حجة السلطة مرفوضة في حقل العلم[3]، فإنها في مجال الرأي والقيم تحظىٰ بأهمية بالغة، لأنه مجال يحتل فيه الإنسان محورا أساسا ترتكز عليه نجاعة التواصل. ففي أي خطاب تقوم وظائفه الأساس علىٰ الإقناع بتغيير الرأي واتخاذ القرار أو إنجاز الفعل، يغدو الاستناد إلىٰ السلطة، بما تحيل إليه من كفاءة أو خبرة، في بناء القرار وتسويغه، أمرا مطلوبا واستراتيجية ضرورية؛ وقد بيّن برلمان في دفاعه عن حجة السلطة، أن الاعتراض لا ينبغي أن

(1) Traité de l'argumentation, op, cit., pp. 410-411.
(2) Bertrand Buffon, la parole persuasive,PUF 2002. p. 191.
(٣) وحتىٰ في الخطاب العلمي نلجأ إلىٰ ذوي الاختصاص نستدعي سلطتهم في المجال الذي نتحدث فيه حتىٰ يكتسي خطابنا مصداقية عند المتلقي. إننا لا نحيط بكل شيء؛ من هنا تصبح الإحالة إلىٰ أقوال علماء لهم حظوة لدينا ضرورية لبناء خطاب علمي مقنع. بيد أنّ الإحالة إلىٰ السلطة في الخطاب العلمي تعتمد محتوىٰ أقواله في تواز مع قيمة صاحبه، بخلاف السلطة في المجالات الأخرىٰ التي يكون التعويل فيها أساسا علىٰ قيمة صاحب القول، لأنها خطابات تروم الإقناع بالعمل في المقام الأول وليس بناء المعرفة

يوجَّه إلىٰ حجة السلطة بما هي تقنية حجاجية من بين تقنيات أخرىٰ تعتمدها الخطابات الحجاجية؛ أي إن حجة السلطة ليست مرفوضة في ذاتها؛ فالاختلاف ليس حول حجة السلطة ولكنه حول طبيعة السلطة المعتمدة؛ فوجه التغليط والتضليل ليس في اللجوء إلىٰ حجة السلطة، ولكن في كيفية اللجوء إليها وفي طريقة استخدامها في سياق معين[1]. فقد تُستدعىٰ سلطة في مجال غير المجال الذي يجري فيه الحجاج، كما أن الخبرة وطول العمر والعدد الكبير ليست حججاً صالحة في جميع الحالات، كما أن الشخص لا يتمتع بالكفاءة في كل المجالات. فمن مغالطات حجة السلطة استدعاء سلطة شخصية دينية في مجالات علمية وسياسية واجتماعية؛ فلا اعتراض علىٰ هذه السلطة في المجال الديني الذي هو مجالها، ولكن تعميم سلطتها علىٰ المجالات الأخرىٰ يجعلها سلطة دوغمائية مطلقة؛ فلا يجوز للشخصيات الدينية أن تتدخل برأيها في كيفية مواجهة جائحة كورونا؛ فمادامت هذه الشخصية الدينية قد تكلمت، فلا كلام بعد كلامها بالنسبة للناس المؤمنين بالدين. والاعتراض النقدي هنا ليس علىٰ سلطتها بشكل مطلق ولكنه علىٰ تحكيم سلطتها الدينية في مجال بعيد عن الدين.

وتعد حجة استدعاء الجمهور ad populum في بعض السياقات من أشكال حجة السلطة علىٰ الرغم من أنها تقوم علىٰ إثارة الأهواء لخلق تصديق السامع بدعاوىٰ لا تعضِّدها أيُّ حجة مقبولة، سوىٰ وجود عدد كبير من الناس يعتقدون بها. إنها تقوم علىٰ حشد مشاعر الناس لحملهم علىٰ قبول الدعوىٰ، لكنها تصبح حجة مغالطة عندما تروم استخلاص حقيقة موضوعية من مجموع الآراء الخاصة بجماعة من الناس: الجميع يقول بهذه الدعوىٰ، إذن هي دعوىٰ صحيحة. وقد استخدمت هذه الحجة المغالِطة في الخطاب المضاد للخطاب الرسمي لإنكار وجود الجائحة أصلاً، ووصفها بأنها أكذوبة من أكاذيب السياسات التي توجه هذا العالم. ويجري اليوم استخدامها في الامتناع عن أخذ التلقيح.

(1) Ibid p:131 et Traité de l'argumentation, op, cit.,p.413.

حجة القدوة..

عندما نروم إقناع الجمهور باتباع سلوك، فإنه يمكن في هذه الحال استدعاء قدوة تستحق المحاكاة. تبنىٰ هذه القدوة علىٰ قاعدة مضمرة تستنتج من الطابع الاستثنائي للحالة الخاصة التي تلتبس هنا بالقاعدة ذاتها. وعلىٰ الرغم من أن حجة القدوة من صنف الحجج التي تبني الواقع انطلاقا من حالات خاصة مثلها مثل حجة المثال كما يرىٰ برلمان، إلا أنها تعتمد السلطة أو الحظوة في العملية الحجاجية؛ إذ نستطيع القول إن حجة القدوة هي نوع من حجة السلطة؛ فالمتكلم في كلٍّ من الحجتين يستدعي شخصا يمتلك حظوة عند المخاطَبين لتثمين الأفعال؛ فهناك اتفاق مسبق بين الخطيب والسّامعين علىٰ أنّ هذا الشخص يمثِّل سلطة تؤول إما لكفاءته أو لحظوته أو لمكانة يتميز بها في المجتمع أو الفريق أو العائلة أو القبيلة أو الجيل أو الحزب أو جماعة دينية أو عند الشخص نفسه[1]، لكن حجة القدوة تتميز بأنها ترىٰ في هذه السلطة قدوة ونموذجا يحتذىٰ؛ أي إن الحجاج بالقدوة يقوم أساسًا علىٰ الحضِّ علىٰ اتباع سلوك؛ إنها تشير إلىٰ السلوك الذي ينبغي محاكاته، كما أنها تصلح أن تمثّل ضامنا للسلوك المتّبع. وبناء علىٰ هذا تشكل السلطة المعترف بها للشخص مقدمة نستخلص منها النتيجة التي تطالب بسلوك خاص[2]. فاستدعاؤنا لسلطة ما بوصفها حجة قدوة، يعني دعوة المخاطب إلىٰ اتباع سلوكها، وفي الوقت نفسه تمثل حجة علىٰ قيمة هذا السلوك ونجاعته.

وقد عمد الخطاب الرسمي الداعي إلىٰ ترسيخ تطبيق الإجراءات الاحترازية ضد انتشار الجائحة، إلىٰ أن تكون مؤسساته وممثليه قدوة في هذا السلوك؛ فقد دأب الوزراء وممثلو الحكومات وضيوفها علىٰ الظهور في وسائل الإعلام الرسمية بالكمامة والحفاظ علىٰ التباعد وعدم المصافحة بالأيدي، بل وإلزام كل من يظهر في هذه الوسائل باتباع هذا السلوك لحمل

(١) يرىٰ برلمان أن نماذج الاقتداء يمكن أن تكون مشتركة بين جميع أفراد المجتمع، كما يمكنها أن تكون خاصة بمجموعة أو فرد. انظر: Chaim Perelman, Le champ de l'argumentation, op, cit.p. 393

(2) Ibid,p 489.

المشاهدين علىٰ محاكاته لما تتمتع به من حظوة في وعي الجمهور المشاهد.

لم ينحصر الخطاب الحجاجي حول كورونا علىٰ حجج التعاقب والتعايش التي تُبنىٰ علىٰ الواقع، بل استخدم حجج المشابهة التي تقوم ببناء هذا الواقع؛ إنها تحدث الواقع بإظهار علاقات جديدة بين الأشياء. وهي علاقات يحكمها مبدأ التشابه؛ تشابه بين وقائع حدثت نستدلّ بها علىٰ قاعدة عامة، وتشابه مرن بين وقائع متنافرة نستخلص منها روابط. وسنقف في هذا الخطاب علىٰ حجتين؛ هما: «المثال»، و«الاستعارة».

حجة المثال..

يمكن أن نعثر علىٰ الحجاج بـ«المثال» سواء في الخطاب الرسمي المسؤول الذي يحث الناس علىٰ الالتزام بالتدابير الوقائية، أو في خطاب عموم الناس سواء أكانوا مثقفين أم أشخاصاً عاديين يتوخون فهم الظاهرة والاقتناع بمواجهتها. فمواجهة المواقف الجديدة تدفع الإنسان إلىٰ البحث عن مواقف مشابهة لها حدثت في التاريخ، سواء تمثلت في الحروب أو في الكوارث الطبيعية. والمشابهة بين الموقفين المختلفين تكمن في النتيجة المتوخاة، وهي أنها جميعها مواقف تهدد وجود الإنسان وتزرع فيه القلق. إن استدعاء الأمثلة ضروري لفهم الظواهر الجديدة؛ لأن الإنسان يبني المعرفة بواسطة التماس النظير أو التمثيلات، كما أن هذا الاستدعاء له وظيفة حجاجية تتمثل في إقناع المسؤولين للناس أو إقناع الناس لأنفسهم بضرورة تجنب هذا التهديد الوجودي وهذا القلق النفسي باتخاذ التدابير الوقائية. فالأمثلة التاريخية تصبح وقائع لها مصداقية إقناعية قوية بحكم أنها وقعت وانتهىٰ أمرها وظهرت نتائجها؛ فهي تجارب وحقائق ومعطيات مسلم بها. و«المثال التاريخي» مثال واقعي يروي الأمور التي حدثت من قبل للإقناع بدعوىٰ ما. وهو يعدّ وفق كنتيليان أقوىٰ أنواع المثال[1]. إن الإثبات والاستدلال يقتضيان من

(1) Francis Goyet,. Le démarrage des Essais: la séduction par les exemples, in Rhétoriques de l'exemple: Fonctions et pratiques, sous la direction de Emmanuelle Danblon, Victor Ferry, Loic Nicolas et Benoit Sans,presses universitaires de France-Comté, 2014, p.19.

المثال أن تكون حقيقته لا جدال فيها؛ أي إنّ الحالة الخاصة التي يتمثّل بها ينبغي أن تتمتّع بوضع الواقعة[1] غير القابلة للشك؛ فأيّ اعتراض عليه بالتشكيك في صدق الواقعة المذكورة، أو في تطبيق القاعدة العامة على الحالة موضوع النقاش، أو إساءة تأويله بسبب ما قد يحوزه من تفاصيل، يترتب عليه الذهول عن الغرض الذي يتوخاه المتكلم[2]. كلّ هذه الشروط من شأنها إضعاف التصديق بالدعوى.

الجائحة والاستعارة..

ومثلما احتشدت الخطابات الرسمية والشعبية بالحجج العقلية الداعية للإجراءات الاحترازية أو الحجج المعترضة عليها، فقد احتشدت بالاستعارات أيضا؛ من هذه الاستعارات استعارة الحرب[3]؛ حيث مثلت كورونا عدوا يهدد البشرية، والأطباء والممرضون جيشا يتقدم الصفوف في معركة مقاومة هذا العدو، والضحايا من هؤلاء المقاومين هم شهداء عند ربهم. ليس الغرض من استخدام هذه الاستعارة في الخطابات الرسمية غرضا أسلوبيا خالصا، بقدر ما هو غرض بلاغي حجاجي[4]؛ فوظيفتها هنا إثارة مشاعر الخوف عند الناس وإقناعهم بتحمل

(1) Traité de l'argumentation,op, cit., p.475.
(2) Ibid, p.482.

(٣) استعارات الكورونا، طارق النعمان، مجلة المسار، عدد (١٢٢)، (ص٤٠)، هيئة اتحاد الكتاب التونسيين، سنة ٢٠٢٠م.

(٤) يذهب طارق النعمان في تحليل هذه الاستعارة مذهبا مختلفا إذ يرى أن وظيفتها إيديولوجية تستخدمها الدول لتبرير سياساتها العدوانية؛ يقول الباحث إن اللغة المستخدمة في فترات الأزمات والكوارث «لا تتسم قط بالبراءة» إنها «لغة مثقلة بالأغراض، لغة لها وظائف وأهداف وغايات أخرى تتصل بإعداد المسرح وتجهيزه للعرض المرتقب. بعبارة أخرى إن المفردات والشعارات والاستعارات المستخدمة تقوم بعملية تأطير وتهيئة وتمرير نفسي وذهني للسياسات والسيناريوهات المستهدف فرضها على مستوى السياسة الداخلية أو الخارجية أو العالمية»، نفسه، (ص٤٢).

مسؤولياتهم في مواجهة هذا العدو؛ إنها تعبئهم وتذكرهم بواجبهم الوطني، وتحثّهم علىٰ الاقتداء بالأطباء والممرضين، أو علىٰ الأقل بالالتزام بالإجراءات الاحترازية لكي لا يزداد عدد المصابين فتزداد أعباؤهم التي يتحملونها، ويجنبهم المخاطر التي تحدق بهم.

الجائحة وخطاب السخرية..

لم يكن يملك الإنسان الذي داهمته أخبار مفزعة وغامضة عن ظهور وباء جديد وبداية انتشاره في بلاد المعمور إلاّ أن يسخر من هذا الوضع المأساوي، لعلّه بذلك يساهم في مساءلته وتجاوزه، وينجح في مرواغته والإفلات من وطأته التي قد تصيبه بالهذيان والعصاب والجنون[1]. ولا تكتفي السخرية بالتعبير عن أحوال الذات ومشاعرها عندما تنزع إلىٰ التخفيف من حدّة الإحساس بالمرارة وخيبة الأمل، بل إنها وسيلة بلاغية من الوسائل التي يحتج بها الإنسان علىٰ وضع قائم بتعرية عيوبه، معتمدة في ذلك علىٰ المبالغة والتهويل في عرض الواقع. وهو أسلوب يعمد إلىٰ إشراك المتلقي في تأويل معطيات هذا الواقع والتواطؤ مع المتلفظ الساخر وتبني موقفه. إنها وسيلة بلاغية حجاجية تبرز أن ثمة فصلا بين الواقع الزائف والحقيقة، وتعارضا بين ظاهر القول وجوهره. إنها كما تقول **كيربرا أريكيونيّ** (Catherine Kerbrat-Orecchioni) تهاجم وتعتدِي، وتفضح وتروم هدفا[2]. وكما يقول علي البوجديدي إنها: «تقوم علىٰ بلاغة المعنىٰ المقلوب، حين تقول ما تضمره، وحين تريد شيئا، ولكنَّها تُظهر غيره. إنَّها إذن تعبِّر عمَّا تريد أن تقوله بقول مضادّ له. فتجيء بالذمّ في قالب مدحيّ، أو بالجدّ في قالب مازح، أو تأتي بالحقّ في قالب الباطل»[3].

(١) السخرية السوداء والكاريكاتير زمن كورونا، علي البوجديدي، مجلة المسار، (ص٣٢).

(2) Catherine Kerbrat-Orecchioni "Problèmes de l'ironie", In *linguistique et sémiologie: Travaux du centre de recherches linguistiques et sémiologiques de Lyon*, N°2, Lyon, Presses Universitaires de Lyon, 1978. P.11.

(٣) السخرية في أدب الجاحظ، علي البوجديدي، (ص١٣٩).

لقد استخدم الإنسان المفزوع بالجائحة، السخرية أداة بلاغية حجاجية لمساءلة عدة أوضاع غريبة أحدثتها كورونا، مساءلة تبرز احتجاجه، وارتيابه، واتهامه، وعدم رضاه عن الواقع الذي يجري أمام عينيه؛ فهناك وضع أول يتعلق بالسؤال عن مصدر هذا الوباء؟ هل هو طبيعي انتقل من الحيوان؟ أم صناعي تسرب من أحد المختبرات؟ وهل انتشاره في العالم ظاهرة طبيعية؟ أم إنه فعل مقصود ينطوي علىٰ أغراض تجارية واقتصادية ومرتبط بالصراع حول الهيمنة علىٰ هذا العالم؟. وهناك وضع ثان يتعلق بالسؤال عن قدرة بلادنا العربية الهشة علىٰ التصدي لهذا الوباء؟ وعن جدوىٰ الإجراءات الصحية المتخذة في بلدان ضعيفة غير قادرة علىٰ تعويض مواطنيها، مما يترتب عليها من أضرار اقتصادية تنذر بكارثة اجتماعية؟ وهناك وضع ثالث يتعلق برفض اللقاح والتشكك في جدواه؛ حيث تعمل السخرية علىٰ إظهار مخاطر اللقاح بشكل هزلي وكاريكاتوري، وخاصة باستعمال الصور والفيديوهات. إنها تشير إلىٰ المفارقة بين السبب الموجب للتلقيح المتمثل في الوقاية والحماية وبين النتائج المترتبة عليه والمتمثلة في الأضرار المهولة التي ستصيب الإنسان الملقح؛ حيث تعتمد المفارقة التهويل ومفاجأة المتلقي لتخويفه بشكل هزلي؛ كأن تصور المسخ الفيزيولوجي الذي سيتعرض له الإنسان بعد أخذه لكمية من الجرعات المضادة للوباء. إن اعتماد السخرية في هذا المقام هو تعبير عن موقف الرفض للتلقيح دون تحمل تبعات هذا الموقف؛ إن السخرية تحرض ضد الاستجابة للدعوات الرسمية إلىٰ إجبارية التلقيح، ولكنه تحريض ضمني يختفي خلف الموقف الهزلي المضحك الذي يضطلع بعدة وظائف؛ منها تجنب الخوض الجدي في أمور علمية لا يحب الساخر توريط نفسه في مناقشتها، ومنها عدم الاستسلام للعجز في اتخاذ موقف مما يجري حوله، ومنها رغبته في الانتصار علىٰ مأساوية الوضع الذي يعيشه بحثا عن اقتناص لحظات مبهجة تفتح له الأمل في حياة أفضل. ولعل هذا ما يفسر موجة الضحك التي تسبب فيها خروج القائدة حورية بزيها الرسمي المخزني في إحدىٰ مدن المغرب وهي تنادي بواسطة مكبر الصوت علىٰ المارين في

الطرقات بالتزام بيوتهم والتقيد بالتدابير الوقائية وعدم الخروج إلىٰ الشارع. كان خروجها إلىٰ الشارع في منطقة شعبية مستخدمة لهجة امتزج فيها الزجر بخفة الدم[1] موقفًا غريبًا يثير الضحك رغم جديته؛ فالقائدة كسرت صورة المرأة الأنثوية المألوفة، كما كسرت صورة القائد المخزني المتجهم، وكسرت العلاقة المعتادة بين القائد وسكان منطقته إذ بدت وكأنها أم حريصة علىٰ أبنائها، وقريبة منهم تتكلم لهجتهم وتعرف أسماء بعضهم. هذه الصورة الغريبة في موقف غريب وجديد علىٰ الناس سبب لهم مجموعة من الانفعالات المختلطة منها الإعجاب والخوف والضحك.

كانت الدعوة إلىٰ الالتزام بالبيت وتجنب التجمعات فكرة يصعب تقبلها اجتماعيًا واقتصاديًا في المجتمع المعاصر؛ فالناس تعودوا حياة اجتماعية مفعمة بالنشاط والحركة والعمل. وفجأة وجدوا أنفسهم محكومين بالقعود في البيوت، يرنون إلىٰ ملامح الحياة العادية في المدينة وقد تغيرت تمامًا؛ فالشوارع خالية من المارة، ومحطات الحافلات والقطارات والمطارات والساحات الأثرية والحمامات وقصور الضيافة والحفلات والمدارس والجامعات أصبحت أماكن فارغة موحشة. إنه فعلا كابوس مفزع للإنسان، لا يمكنه قهره إلا بالسخرية.

(١) من أقوالها التي انتشرت بين الناس قولها لأحد المواطنين بالعامية المغربية: «العالم كيموت ونتا كتكركر..دخل لدارك..غبر..غبر» (العالم يموت وأنت تقهقه..أدخل بيتك..اختف. اختف) وهو ملفوظ يمزج الجد بالهزل والتراجيديا بالكوميديا، ويلخص في الوقت نفسه الموقف الشعبي من الوضع المأساوي الذي تورط فيه الإنسان رغما عنه.

تأويل الجائحة[1]..

وتتمثل إحدىٰ وسائل الإقناع والتأثير في الطريقة التي نقدم بها المعطيات أو المنظور الذي ننظر به إليها، والوجهة التي نوجهها نحوها؛ فإذا أردنا أن نهدئ من روع الناس، ونخفف عنهم الشعور بالفزع، ونهيئ نفوسهم لقبول الوضع الجديد، وتحمل أعبائه الثقيلة، فإننا يمكن أن نقدّم هذه الجائحة باعتبارها خيرا للبشرية ينطوي علىٰ منافع عديدة. وإذا أردنا أن نرهبهم ونحسّسهم بانحرافهم عن تعاليم الدين، فإننا يمكن أن نقدمها باعتبارها عقاباً للبشرية علىٰ ما تقترفه من ذنوب. إن المعنىٰ الذي نمنحه للوباء، ينطوي علىٰ غرض حجاجي؛ فإما أننا نروم تهوين الأمر وتخفيف الألم الذي أحدثته الجائحة بالناس لنجعلهم راضين بحياتهم، وإما أننا نروم تهويل الأمر ومضاعفة الألم لنجعلهم ساخطين علىٰ حياتهم.

تركيب..

لم ينحصر حضور كورونا في العالم باعتبارها جائحة فتكت بأجساد ملايين البشر فقط، بل حضرت أيضاً باعتبارها خطابات لفظية وغير لفظية. فلا يجوز فصل هذه الجائحة عن الخطابات التي شكّلتها في وعي الناس ووجدانهم. وقد سعينا في هذا المقال إلىٰ الاستدلال علىٰ الحضور الخطابي الحجاجي للجائحة؛ هذا الحضور الذي اقتضاه عدم تصديق ظهور وباء

(١) «والتأويل لا ينفصل عن طريقة تقديم وتشكيل المعطيات. وإذا كانت النظرية البلاغية قد منحت الأهمية القصوىٰ في تاريخها الطويل لدراسة وسائل التقديم معتبرة أن البلاغة هي مجموعة من تقنيات التقديم والعرض أو الصور الأسلوبية، فإن البلاغة الجديدة ترىٰ الاهتمام بهذه التقنيات والصور منفصلة عن وظيفتها الحجاجية قد أدىٰ في النهاية إلىٰ عقم البلاغة وموتها. ولأجل ذلك حرص شايم برلمان ومن جاء بعده من بلاغيين علىٰ عدم فصل الشكل عن المحتوىٰ في الخطاب ودراسة البنيات وصور الأسلوب مرتبطة بغرضها الحجاجي»، انظر: محاضرات في البلاغة الجديدة، محمد مشبال، (ص٣١).

طبيعي في هذا الزمن، ورفض الالتزام بالاحترازات الوقائية المطلوبة التي تتعارض مع نمط الحياة الحديثة. هذا الاصطدام بين مطالب الحكومات ومطالب الشعوب، ولّد تفاعلاً خطابياً حجاجياً؛ فالسلطات المسؤولة تسعىٰ إلىٰ إقناع الناس بدعواها، بينما سعت الخطابات الشعبية تارة إلىٰ هدم الخطاب الرسمي، وتارة إلىٰ تبني هذا الخطاب أو إنتاج خطاب مماثل له. وفي جميع الأحوال أثبت هذا المقال أن خطابات الجائحة الحجاجية يمكنها أن تمثل شواهد توضّح عديدا من الحجج التي تزخر بها نظرية الحجاج أو البلاغة الجديدة كما يمكن الاطلاع عليها في مصنفات شاييم برلمان وغيرها.

***

قائمة المصادر والمراجع

* المراجع العربية:

- **استعارات الكورونا.** النعمان، طارق، مجلة المسار، عدد (١٢٢)، (ص٤٠)، تونس: هيئة اتحاد الكتاب التونسيين، ٢٠٢٠م.
- **السخرية السوداء والكاريكاتير زمن كورونا.** البوجديدي، مجلة المسار، عدد (١٢٢)، (ص٣٢)، تونس: هيئة اتحاد الكتاب التونسيين، ٢٠٢٠م.
- **السخرية في أدب الجاحظ.** البوجديدي، علي، ط١، د.م: دار كنوز المعرفة العلمية، ٢٠١٨م.
- **محاضرات في البلاغة الجديدة.** مشبال، محمد، د.ط، بيروت: منشورات الرافدين، ٢٠٢١م.

* المراجع الأجنبية:

- Catherine Kerbrat-Orecchioni «Problèmes de l'ironie», In *linguistique et sémiologie: Travaux du centre de recherches linguistiques et sémiologiques de Lyon*, N°2, Lyon, Presses Universitaires de Lyon, 1978.
- Chaim Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traité de l'argumentation, éditions de l'université de Bruxelles, 2000.
- Chaim Perelman,Le champ de L'argumentation, Presses Universitaires de Bruxelles, 1970.
- Chaim Perelman, L'empire rhétorique, Librairie Philosophique j. VRIN, 1977, 2008.
- Francis Goyet,. Le démarrage des Essais: la séduction par les exemples, in Rhétoriques de l'exemple: Fonctions et pratiques, sous la direction de Emmanuelle Danblon, Victor Ferry, Loic Nicolas et Benoit Sans,presses universitaires de France-Comté, 2014.

* * *

Bibliography

- Istiarat aL korouna, Nooman tarik, majalat al masar, adad 122 tunes, ittihad al kottab attounesiyin 2020.
- Asokhria fi adab al jahidz, Ali al boujdidi, dar konouz al marifa al ilmia, 2018.
- Asokhria sawdae wa al karikatir zamana al korouna, Ali al boujdidi, majalat al masar, adad 122 tunes, ittihad al kottab attounesiyin 2020.
- Mohadarat fi al balagha al jadida, Mohamed mechbal, manchourat arrafidayn, 2021.

❋ ❋ ❋